السمات الفنية في المنهج النقدي الاعتقادي عند الباقلاني
((دراسة نقدية))

د.عكاب طرموز علي الحياني
المعهد التقني في الانبار

المقدمة

الباقلاني : هو أبو بكر الخطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣هجرية . وهو من علماء الاشعرية وخطبائهم . وقد تولى الرد على الطاعنين والمخالفين وأصحاب الملل .

له مصنفات منها : إعجاز القرآن ، وكتاب الانتصار لنقل القرآن ، والتمهيد والإرشاد.

فقد تصدى لنقد النصوص التي تناولها بنقد موضوعي على أساس من الفهم السليم، والإدراك الواعي لما توحيه هذه النصوص من المعاني ، كاشفا عنها ، موضحا لها ، يعينه في ذلك علم وافر بأساليب القول وفنونه ، ومعرفة عميقة بطرق العرب وتقاليدها في التعبير الأدبي وبناء القصيدة العربية القديمة ، وتمرسه باللغة العربية ومقاييسها .

لقد كان الباقلاني متمكنا في عرض أرائه النقدية في المذاهب النقدية المختلفة لسابقيه ومعاصريه على حد سواء ، من خلال بحثه في القضايا النقدية الآتية :

١- البديع والبلاغة وثورته عليهما .

٢- أثر اللفظ في التعبير وصلته بالمعنى ، وضرورة أن يكون المعنى موجها للفظ.

٣- بحثه في نظرية الأدب .

٤- الأثر النفسي للأدب ، الذي أكد أن المثال الأعلى له يتمثل في القرآن الكريم ، متحدثا عن الشخصية المبدعة ، وأثرها في إنشاء الأدب من خلال الانفعال ، الذي يحدث التأثير النفسي للأديب ، ثم تحدث عن الأثر النفسي الذي يحدثه النص في المتلقي .

ثم يخلص الباقلاني بعد كل ذلك إلى ما يمكن تسميته النظرية النقدية التي وضع فيها خارطة الطريق لمهمة الناقد الأدبي .

وقد حاولت من خلال هذا الجهد المتواضع أن اكشف اللثام عن هذه السمات النقدية التي توصل إليها الباقلاني . وقد انتصرت له بقدر ما تسمح به الأمانة العلمية ، إيمانا مني بسلامة نيته ، وصفاء سريرته ، وهو يصد عن كتاب عربيتنا الخالد سهام الحاقدين ، وأوهام الحاسدين. والله ولي التوفيق.

مجلة سر من رأى
ISSN: 1813-6729
مجلة للدراسات الانسانية محكمة متخصصة
تصدر عن كلية التربية / جامعة سامراء

الباحث

تمهيد

المنهج لغة هو: الطريق الواضح[١].

أما اصطلاحاً فهو : الطريقة التي يتبعها الباحث في بناء البحث، أي (إدامة النظر في بناء الكتاب. في هيكله أو في خطته– إن شئت – منذ البداية حتى النهاية وما بينهما من صورة وزعت عليها المادة. كلياً في عموم الكتاب. وجزئياً في خصوص فروعه)[٢].

وقد تعددت المناهج النقدية في مؤلفات إعجاز القرآن الكريم تبعاً لتعدد ثقافات النقاد ومذاهبهم . (وهذا الاختلاف يؤدي إلى اختلاف نظراتهم إلى النص الأدبي فتختلف بذلك آراؤهم وأحكامهم ، وهذا يؤدي إلى تعدد وتغاير في المناهج) [٣] .

إلا أن تعدد المناهج النقدية هذا لا يعني الفصل الكامل بينها ، ولا يعني أن أياً منها يستغني عن الآخر ، وإنما الحاجة متبادلة فيما بين اجمعها ، فالمنهج اللغوي مثلاً (لا يستقل بنفسه ، فلا بد فيه من قسط من المنهج الفني ، فالذوق والحكم ودراسة الخصائص الفنية ضرورية في كل مرحلة من مراحله) [٤] . وكذلك المنهج الفني عندما نمعن النظر فيه فإننا نلمس (العنصر النفسي بارزاً في كل مظهر من مظاهره وفي كل مرحلة من مراحله ، لأن العمل الأدبي ما هو إلا استجابة معينة لمؤثرات خاصة ، وهو بهذا عمل صادر عن مجموعة القوى النفسية) [٥] ، وكذلك الحال في بقية المناهج النقدية .

والنقد الاعتقادي أو المنهج الاعتقادي في النقد – لا فرق – (هو النقد الذي تتحكم فيه عقائد وآراء خاصة عند الناقد وهو يحمل في طياته معنى التعصب والميل إلى نزعة خاصة) [٦]

بالناقد الذي يتصدى لنقد العمل الأدبي . ولذلك يتسم نقده بأنه نقد (تسيطر عليه

آراء ومعتقدات سبق أن استقرت عند الناقدين وذلك لهوى ديني أو وطني أو عنصري وهذا هو أشد أنواع النقد تعرضاً للتجريح)[٧].

اتخذ الباقلاني من المنهج الاعتقادي طريقاً رسمه لنفسه في عملية التحليل النقدي للنصوص ، وقد طبق منهجه هذا بمهارة عالية خلال تناوله لقضية إعجاز القرآن الكريم .

ومن هذا المنطلق لا نستغرب سيل الانتقادات التي تعرض لها الباقلاني . غير أن المطلع على السيرة الذاتية لهذا العالم الجليل من خلال ما كتب عنه ومن خلال دراسة مؤلفاته التي انصبت على دراسات القرآن الكريم ، سوف يدرك مدى قوة سيطرة العقيدة الإسلامية على عقليته العلمية . فقد كان من علماء الأشعرية وخطبائهم ، وكان يميل إلى المعتزلة.

وقد خاضت الاشعرية معارك جدلية شرسة في الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد أصحاب الملل الأخرى . وكان الجدل محتدماً يومها في علوم القرآن والسنة وعلم الكلام ، وفي كل ذلك كان الباقلاني المدافع الأمين عن الكتاب والسنة ، ومن هنا ندرك شرف الغاية ونبل المقصد من وراء هذا النقد الذي كان أساسه نصرة القرآن عن طريق نصرة إعجازه .

إن عالماً مثل الباقلاني أفنى جلَّ عمره في الدفاع عن مذهبه أو معتقده المتمثل في القرآن الكريم ، لحري به أن يصطبغ جراء هذا المراس الطويل بصبغة هذا المعتقد ويصبح طبعاً ملازماً لعقليته العلمية ، فهو مستفز دائماً ، وفي حال استنفار دائم للتصدي لأعداء القرآن وتسفيه آرائهم ودحض حججهم فقد أصبح طبعه وهواه تبعًا للقرآن . ويجدر بنا أن نتنبه إلى عظم الهجمة الظالمة التي كانت توجه إلى القرآن في ذلك الوقت.

وباختصار شديد فانه لا يرى قولاً يوصف بأنه الأجمل غير القرآن ، ومن هنا قد يجوز لنا إن نلتمس له عذراً في تحامله على كل أدب يتصدى لنقده خارج القرآن ، خاصة إذا تذكرنا إن الإنسان بطبعه البشري لا يمكنه التخلي عن هواه بشكل كامل مهما أوتي من رغبة لكي يكون محايداً .

إذ ليس (في استطاعة كائن من كان أن يتجرد من الهوى لأن هذا الضعف ملازم للطبيعية البشرية) [٨] . واستناداً إلى ذلك فإني انفي عن الباقلاني صفة التجني على الشعر متعمداً. وأرجح إن رؤيته هذه كانت نتيجة طبيعية لما تطبع به . كما قال الشاعر :

وعين الرضا عن كلّ عيب كليلة ولكنَّ عين السُّخط تبدي المساويا [٩]

خاصة إذا علمنا أن النقد بأغلبه يعتمد على الذوق الذي هو شيء نسبي يختلف من ناقد إلى آخر ، وليس له معايير ملزمة متفق عليها .

لقد ابتدأ الباقلاني منهجه النقدي في كتابه إعجاز القرآن بتناوله بعض الآثار الفنية الرائعة بالتحليل متمثلة في بعض خطب النبي محمد ﷺ ، وصحابته الكرام رضي الله عنهم ، وبعض فصحاء العرب وبلغائهم ، هذا من جهة النثر ، أما من جهة الشعر فانه يختار من أفضل ما اتفق النقاد على جودته من الآثار الشعرية القديمة ، فيختار معلقة امرئ القيس ، وبعد ذلك يأتي إلى عصره وهو القرن الرابع الهجري فيختار أروع قصائد البحتري الذي يعده نقدة ذلك العصر من أفضل من يمثل طريقة العرب في قول الشعر، وذلك لالتزامه بعمود الشعر[١٠].

وبعد ذلك يتناول بالتحليل الدقيق كلام مسيلمة الكذاب الذي حاول تقليد القرآن ، وبين فشل ادعاءاته وخيبة معتقداته .

وفي كل ذلك كان الباقلاني يحلل الأثر الفني الذي يتصدى له كاملاً ، إيماناً منه بالوحدة الفنية الموضوعية في النقد ، لذلك نراه عندما يحلل القرآن يأخذ سورة كاملة فيتعهدها بالتحليل الدقيق فيخلص من ذلك إلى مجموعة من الأسس الفنية في النقد التي هي مدار هذا البحث .

على أنني سوف أجري مداخلات نقدية على آراء الباقلاني ، أناصرها حيناً ، وأتحفظ عليها حيناً آخر ، معززاً كل ذلك بالأدلة . وقد قسمت البحث على فصلين :

الفصل الأول : درست فيه السمات الفنية النقدية التي برزت في منهج الباقلاني الاعتقادي من خلال الممارسة الإجرائية في تناوله لنقد النصوص .

الفصل الثاني : درست فيه الممارسة التطبيقية للعملية النقدية عند الباقلاني .

الفصل الأول

السمات الفنية في منهج الباقلاني

أولاً: النظم

إن النظم هو أهم سمة نقدية توصل إليها الباقلاني واستمد منها رؤيته في إعجاز القرآن التي كان يراها متمثلة في النظم والرصف .

لقد تطور مفهوم النظم عند الخطابي (ت ٣٨٨ هـ) قبل الباقلاني ، وكان الخطابي يقصد به "التأليف" بين اللفظ والمعنى الذي عده مناط البلاغة وهو (وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ، وذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس إنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ... والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها ، وان كانا قد يشتركان في بعضها) [١١] .

فالبلاغة عند الخطابي سمة تعبيرية أو قيمة أسلوبية ، إذ ربط بين الأسلوب والطريقة الفنية في الأداء التعبيري . وبذلك يتقدم على (كروتشه) بعشرة قرون ، عندما عبّر الأخير عن اللفظ والمعنى بالشكل والمضمون ، ومن خلال اتحادهما تتحقق القيمة الفنية للعمل ، إذ قال (لا يمكن أن يوصف كل منهما على انفراد بأنه فني ، لآن النسبة القائمة بينهما هي وحدها الفنية) [١٢] .

وتلك (الفنية) هي ذاتها التي عبر عنها الخطابي بالبلاغة التي تسقط عنده بعدم الاتحاد بين اللفظ والمعنى .(ولم نقتصر فيما اعتمدناهُ من البلاغة لإعجاز القرآن على مفرد الألفاظ التي منها يتركب الكلام دون ما يتضمنه من ودائعه التي هي معانيه وملابسه التي هي نظوم تأليفه)[١٣]. وقد وضع كغيره أمثال الرماني (ت ٣٨٤هـ) والعسكري (ت ٣٩٥ هـ) أقساماً ومسميات تشتمل عليها البلاغة وجعلوها أساساً لبحوثهم النقدية . وأفادوا بان البلاغة تتحقق بالآية ، أو بيت الشعر ، أو شطره ، أو العبارة ، ومن ثم تكون هذه أساساً لأحكامهم في إعجاز القرآن .

غير أن الباقلاني قد خرج على ذلك المنهج النقدي الذي قرره الدارسون ، فربط بين الأسلوب والنظم الذي هو (طريقة التأليف) إذ يقول (ليس الإعجاز في نفس الحروف (الكلمات) وإنما هو في نظمها وإحكام رصفها) [١٤] .

وعلى هذا الأساس يرى إعجاز القرآن متمثلاً بكليته ، ويعد القرآن نصاً قائماً بذاته ، فهو قرآن . (إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم، انه خارج عن العادة، وانه معجز وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه) [١٥] بنظمه وبيانه ، بوصفه وحدة نصية متكاملة . فالنظم لدية هو أسلوبية النص التي ينطلق منها في

التحليل الأسلوبي باتجاه أسلوبية السياق المتمثلة في العمل الأدبي ، وبهذا يعاكس السابقين عندما يبدأ من الكل إلى الجزء .

وبهذا اتجه لأول مرة في تاريخ النقد العربي إلى تحليل نصوص كاملة ، مثل معلقة امرئ القيس ، وقصيدة البحتري :

أهلاً بذلكم الخيال المقبلِ فعل الذي نهواه أو لم يفعل

برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضلَّل (١٦)

كما حلل سورة النمل وسورة غافر ، وبعضاً من خطب النبي محمد ﷺ ، وبعض صحابته الكرام ﷺ ، وبعض فصحاء العرب وبلغائهم (١٧) .

وبذلك يكون العرب قد حققوا على يد الباقلاني سبقاً نقدياً يبعد قروناً من الزمن عن المحدثين حينما عرفوا الممارسة التحليلية النصية الكاملة للقرآن الكريم ، وعليه فان ذلك يمثل رداً بليغاً على أولئك الذين يدعون أن الأسلوبية الغربية قد حققت سبقاً في تحليلها نصوصاً كاملة (١٨) .

على أنني أرى أن النقد البلاغي الذي رفضه الباقلاني لا يتعارض مع النقد الأدبي القائم على التحليل الكلي أو السياقي للنص ، بل أرى أن التحليل التفكيكي هو جوهر التحليل الكلي ، فحينما يعمد الناقد إلى تفكيك العبارة فانه يستخرج إمكاناتها الأسلوبية ، ويوضح القيم التعبيرية لكل ملحظ من ملاحظ البلاغة فيها على حدة ، ثم يقوم بتجميعها مرة أخرى ، وعن طريق تضام هذه البروزات الأسلوبية مع بعضها يحصل الناقد على نص قد فتحت أسراره وقيمه التعبيرية ، وعن طريق تضام هذه النصوص أو العبارات تتحدد القيمة التعبيرية الإجمالية للنص الكلي . وبذلك يكون التفكيك في خدمة السياق العام ، وبعبارة أخرى تكون البلاغة جزءاً من النقد ، هذا إذا كان ثمة فرق بين البلاغة والنقد أساساً . إذ إن هذا الموضوع من الموضوعات التي كثر فيها الأخذ والرد . ويبقى لكل ناقد وجهة النظر التي يتبناها .

ثانياً: الوحدة الفنية أو الموضوعية

إن الوحدة الفنية التي بنى الباقلاني نقده على أساسها تمثل الخلفية أو الماورائية التي تنتظم جزئيات العمل الأدبي ، فهي كاللون الأساس الذي يتخذه الرسام أساساً يلون به كامل اللوحة الفنية أولاً ، ثم يرسم جزئيات اللوحة على هذا اللون الأساس ، إذ يشكل حاضنة لجميع هذه الألوان ، وتتناغم جميعها معه لتبرز العمل الفني وحدة كلية واحدة تستلزم تماسكاً عضوياً خفياً في بنية العمل الفني . ولذلك تنبه الباقلاني إلى إن أجزاء النص منفردة لا تحقق الوحدة الموضوعية ، وان (السورة لا الآية اصغر وحدة فنية موضوعية في القرآن يمكن الحكم عليها بإعجاز النظم ، أو بالبلاغة ، وروعة البيان ؛ لأنها يمكن أن تتوفر لها شروط الإعجاز السليمة) (١٩). ولكن دراسة الآية بوصفها وحدة فنية

واستخراج الملاحظ البلاغية منها ، وتوضيح جماليتها وروعتها البيانية أو بعبارة أخرى استخراج المهيمنات الأسلوبية والقيم التعبيرية منها يفيدنا حينما يضاف ذلك إلى القيم التعبيرية في الآية الأخرى ، التي تحتوي حتماً على قيم تعبيرية إضافية أو مختلفة عن تلك التي في الآية الأولى ، لنحصل على قيم تعبيرية جديدة أو مضافة ، وحينما نذهب إلى الآية الثالثة والرابعة وهكذا ، فان الناتج الكلي سوف يكون أكثر قياساً إلى البيان ، أي إن كل القيم التعبيرية في الآيات المتعددة ترفد بعضها بعضاً .

وبهذا يتضح أن التحليل البلاغي ينهض لخدمة السياق العام في السورة ومن ثم يخدم (التحليل الأدبي) ، هذا الذي جعل منه الباقلاني مذهباً نقدياً له . وهذا ما ذهب إليه الدكتور محمد زغلول سلام إذ يقول: (من اهم ما يسترعي النظر في منهج الباقلاني لدراسة إعجاز القرآن اعتبار الوحدة الفنية التي تتضمن موضوعاً واحداً، ويظهر هذا من تناوله بالتحليل سورة بتمامها يتدرج فيها ليظهر ما تنطوي عليه من خصائص في النظم لا تقتصر على مجرد روعة استعارة أو بلاغة تشبيه يرد في آية أو عبارة قصيرة وإنما إعجازه منصب عليه جملةً لا تفصيلاً، فالسورة _لا الآية_ اصغر وحدة فنية موضوعية في القرآن يمكن الحكم عليها بإعجاز النظم أو بالبلاغة وروعة البيان لأنها يمكن أن تتوفر لها شروط الإعجاز السليمة وبذلك يكون قد خرج عن منهج السابقين وآرائهم ودراساتهم إذ اعتبروا الآية أو العبارة أو بيت الشعر أو شطره أساساً لبحوثهم النقدية)[٢٠].

غير أن الأستاذ محمد رجب البيومي لا يوافق الدكتور محمد زغلول سلام على هذا الاتجاه فيقول: (والحق إن الباقلاني لم يتجه إلى الوحدة الفنية التي تتضمن موضوعاً واحداً كما فهم الدكتور ،(يقصد سلام) بل حاول الربط بين الآيات المتتالية حيث يعقد مناسبة بين السابقة واللاحقة، تجعل تسلسل المعاني منسجماً واضحاً ، وهذا شيء والوحدة الفنية التي تتضمن موضوعاً واحداً شيء آخر)[٢١].

وارى أن التحليل الشمولي للنص لا يتأتى إلا عن طريق تحليل أجزائه ، وهذا ما فعله الباقلاني ، فهو يقول : (ثم انظر في آية آية ، أو كلمة كلمة، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الرصف ؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية . فكيف اذا قارنتها أخواتها وضامّتها ذواتها، تجري في الحسن مجراها، وتأخذ في معناها؟ ثم من قصة إلى قصة، ومن باب إلى باب ، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل)[٢٢]. وهذا يعد مراعاة للصلات القريبة بين الآيات أولاً ثم ربط هذه الصلات بالأبواب والقصص ثانياً. وبعد ذلك تتكون خلفية شموليه لكل السورة تشكل (خاطراً في ذهن الباقلاني كما كانت خاطراً لدى نفر من الكاتبين)[٢٣].

ثالثاً : الموازنة بين القرآن والشعر والنثر

لم توازن العرب بين القرآن والشعر والنثر قديماً ؛ لأنهم أدركوا للوهلة الأولى أن القرآن متفرد لا يمكن أن يجاريه قول . لكنهم استشهدوا بالقرآن على جودة الشعر ، واستشهدوا بالشعر على عربية بعض ألفاظ القرآن ، فعل ذلك عمر بن الخطاب وابن عباس (رضي الله عنهما) واعترافهم هذا بفرادة القرآن الكريم جعلهم يحجمون عن مجرد المحاولة للإتيان بآية واحدة استجابة لتحديه لهم . لقد ظهرت الموازنة عندما ظهرت دراسات إعجاز القرآن ، وظهور بعض الحاقدين على الإسلام من الملل الأخرى أو الملاحدة . لدرجة أن بعضهم فضل الشعر على القرآن حسداً من عند أنفسهم .

ومن هنا انبرى علماء الأمة الأجلاء للذود عن كتابهم العربي المعجز . إذ كثرت دراسات إعجاز القرآن التي أثرت علم البلاغة والجدل والمنطق واللغة ، مما أسهم إسهاماً كبيراً في إثراء المكتبة العربية ولاسيما في القرون : الثالث والرابع والخامس للهجرة ، مثل تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ت ٢٧٦ هـ ، والنكت في إعجاز القرآن للرماني ت ٣٨٤هـ ، وبيان إعجاز القرآن للخطابي ، ت ٣٨٨ هـ ، وإعجاز القرآن للباقلاني ت ٤٠٣ هـ ، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ت ٤٧١ هـ ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

وكان الباقلاني يمثل واسطة العقد في هذه الأسماء الكبيرة من العلماء ، وكما جار الملاحدة والشعوبيون في أحكامهم على القرآن الكريم ، فان النقد الذي مارسه هؤلاء العلماء لم يخل من التحامل على الشعر نوعاً ما .

وكان أشهر من اتهم بالتعسف في نقده للشعر والنثر هو الباقلاني عندما وازن بين القرآن وشعر كل من امرئ القيس والبحتري وكذلك بعض خطب النبي ﷺ وبعض صحابته الكرام ﷺ وآخرين غيرهم ، وفي كل ذلك كان يرفع من شأن القرآن كما هو أهله ويحط من قدر غيره [٢٤] . فيما عدا خطب النبي ﷺ إذْ كان نقده لها أخف وطأً ، وألين أسلوباً .

على أن للموازنة أصولها وقوانينها التي لا تنطبق على القرآن والشعر إلا في كونهما من لغة واحدة ، وهذا لا يكفي لإجراء الموازنة ، ولكن كما أسلفت فان الضرورة هي التي ألجأت هؤلاء العلماء لبيان إعجاز القرآن وقصور أي نوع أدبي آخر عن الاقتراب منه فضلاً عن مجاراته . أضف إلى ذلك أن بعضاً من الدراسات الأسلوبية الحديثة لا تصدر أحكاماً عندما تمارس عملها النقدي على النص [٢٥] . وكذلك بعض النقاد القدماء ، مثل الآمدي في كتابه (الموازنة) الذي أكد فيه أنه سيقارن بين قصيدة وقصيدة من شعر البحتري وأبي تمام ، إذا اتفقا في الوزن والقافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم يقرر أيهما اشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ، تاركاً للقارئ أن يحكم حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما ، إذا كان يدري الجيد من الرديء [٢٦] .

إذن فقد كان يكفي الباقلاني تحليل النصوص القرآنية تحليلاً أدبياً ، وعمل الشيء نفسه في الشعر من دون أي انتقاص من قيمه التعبيرية ، وهذا يكفي أي منصف أن يجد الفرق شاسعاً ، والحق واضحاً ، بين القرآن وما عداه ، إذا كانت لديه الدراية التي تمكنه من تمييز النصوص . (ورضي الله عن أبي بكر الباقلاني ، فقد جمع في كتابه خيراً كثيراً ، واستفتح بسليم فطرته أبواباً كانت قبله مغلقة، وكشف عن وجوه البلاغة حجاباً مستوراً. ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة، وان لم يقصد بها هو قصد العاقبة التي انتهت إليها)[٢٧]. إذ كان عليه أن يعلي من شأن الشعر الجاهلي متمثلا بقصيدة امرئ القيس ويحفظ له هيبته ، ويوضح خصائصه البيانية. وبعد ذلك يبرز الفارق الواضح بينه وبين التعبير القرآني وأساليبه. وهذا الفارق هو الذي يظهر الإعجاز القرآني ، وليس الانتقاص من الشعر الجاهلي. علماً أن الباقلاني (كان يجد في نفسه وجداناً واضحاً أن خصائص بيان القرآن مفارقة لخصائص بيان الشعر، وقد المح إلى ذلك في كتابه ، " يقصد إعجاز القرآن" كما المح إليه من سبقه. بيد أن جدل المتكلمين قبله وعلى عهده، وخوض الملحدين في أصول الدين كما قال ، ومنهجهم في اللجاجة وطلب الغلبة، كل ذلك لم يدعْه حتى استغرقه في الرد عليه، على مثل منهاجهم من النظر . ثم دارت به الدنيا، لما بلغه أن بعض جهّالهم يعدل القرآن ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام)[٢٨]

ولذلك فلا أرى حاجة لكي يجشم الباقلاني نفسه عناء هذه التجربة التي حسبت عليه ، ولاسيما أنه أعطى القرآن حقه ، وأعطى امرئ القيس حقه عندما قال : (وأنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ، ولا ترتاب في براعته، ولا تتوقف في فصاحته) [٢٩] .

علماً أن الباقلاني كان مدركاً تماماً عدم جواز هذه الموازنة بين القرآن بوصفه نصاً معجزاً والشعر بوصفه عملاً بشرياً . وقد بين ذلك بقوله (إن الكلام في إن الشعر لا يجوز أن يوازن به القرآن) [٣٠] .

الأمر الذي جعل بعض الباحثين لا يرى الباقلاني قد جاء بشيء ذي أهمية من خلال تحليله وتوضيحه لخصائص النصوص القرآنية التي قام بتحليلها [٣١] .

رابعاً : البراعة

لقد جعل الباقلاني "البراعة" فناً بلاغياً قائماً بذاته وأفرد له فصلاً في كتابه "الانتصار" ولا أعلم أن أحداً ممن سبقوه قد تنبه إلى هذا الفن بوصفه فناً بلاغياً أو قسماً من تقسيمات البلاغة ، أما الباقلاني فجعله وصفاً للكلام عندما قال : (أما وصف الكلام بأنه براعة ، معناه انه حذقت طريقته ، وأجيد نظمه ، وقد يوصف بذلك كل مجيد قول أو صناعة ، فيجوز أن يوصف القرآن بالبراعة على هذا المعنى ، والمراد أنه نظم يخرج عن إمكان كل الناطقين لا على معنى انه تجويد كلام هو على معنى كلام العرب) [٣٢] .

وهنا أرى انه قد ساوى بين البراعة والبلاغة في قوله :(فيجوز أن يوصف القرآن بالبراعة) [٣٣] لأن القرآن يوصف بالبلاغة وليس بتقسيماتها ، إذْ لم نعهد أحداً وصف القرآن بأنه يوصف بالاستعارة ، أو يوصف بالتشبيه ، وإنما يوصف بالبلاغة . وبذلك يكون الباقلاني قد وضع بصمة جديدة في النقد العربي ، وهذا كله ناتج من اعتقاده المطلق بإعجاز القرآن الكريم .

خامساً : نفيه السجع من القرآن الكريم

لقد وقف الباقلاني ضد مفهوم (السجع) ورفض اعتباره فناً من الفنون البلاغية الواردة في القرآن الكريم ، فقال : (ذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن) [٣٤] .

وهنا نلمح إشارة واضحة على مذهبه الاعتقادي في النقد ، إذ إن كلمة "أصحابنا" الواردة في النص تعني الأشاعرة الذين ينفون السجع عن القرآن ، وكان الباقلاني على مذهبهم ، غير أن الباقلاني ذكر سبباً موضوعياً لنفي السجع عن القرآن وهو كون المعنى يتبع اللفظ الذي يؤدي السجع ، قال : (لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى) [٣٥] وبذلك فانه نفى السجع عن القرآن مثلما نفى الوزن عن القرآن .

غير أنه تكلم عن الفاصلة التي تقابل السجعة والتي تختم بها آيات القرآن الكريم والتي تعد صوراً كاملةً للأبعاد التي تختتم بها عادة الجمل الموسيقية ، وهي تتفق مع الآيات في قرار الصوت اتفاقاً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه ، وغالباً ما تنتهي الفواصل بحرف النون وحرف الميم ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى ، وكذلك تنتهي بحروف المد واللين مما يعزز من إثارة الشعور والتطريب [٣٦] . وقد قال ابن منظور في قوله تعالى:

(كتاب فصلناه) [٣٧] : (له معنيان : احدهما تفصيل آياته بالفواصل ، والمعنى الثاني : بيان) [٣٨] .

وعلى ذلك فان الفاصلة تعد ركنا وطيدا (من أركان الآية لفظاً ومعنى ، بقدر ما هي ركن في المقطع والسورة ومجموع القرآن ، وهي كذلك شارة تميز القرآن من الشعر والنثر مسجوعاً أو مرسلاً ، يفطن إليها القارئ الشارد كما يؤخذ بسحرها المطالع الثقف) [٣٩] .

سادساً : نظرية الأدب

لقد كان الباقلاني على ضربة معول من تأسيس نظرية الأدب كما هي عليه في العصر الحديث ، فقد أكد على حتمية النظر إلى النص بشكله الكلي وعدم تجزئته لغرض إجراء التحليل الأدبي السليم ، فتكلم عن موضوع البيان عامة من خلال اعتماده على النظم واتفاقه مع المعنى ثم بحث في أركان الأدب من خلال : المبدع ـــ التعبير ـــ المتلقي .

ففيما يخص المبدع _على أساس ما له من اثر حاسم في صياغة التعبير الفني ، ذكر ما يجب أن يتوفر له من شروط ، مثل الطبع ، الذي هو السجعة الصالحة لإنتاج التعبير الأدبي ، ويجب أن

يكون هذا الطبع عفوياً غير متكلف ، وكذلك من شروط المبدع لطف اللسان وفصاحته . ودقة التصوير لما يخالج النفس من أفكار بحيث يكون متمكناً من التعبير عما في نفسه بصدق ووضوح.

وهنا يتنبه الباقلاني إلى عنصر مهم جداً من عناصر التعبير وهو "الانفعال" ، الذي يبعث حرارة العاطفة لدى الأديب فينتج أدباً صادقاً بقدر ما يكون الانفعال حقيقياً . وبذلك يصور هذا الانفعال الأحاسيس والمشاعر التي تخالج نفس الأديب . فمثلاً (إن الشعر في الغزل، إذا صدر عن محب كان ارق واحسن، واذا صدر عن متغزل وحصل من متصنع نادى على نفسه بالمداجاة ، واخبر عن خبيئه في المراءاة . وكذلك قد يصدر الشعر في وصف الحرب عن الشجاع، فيعلم وجه صدوره، ويدل على كنهه وحقيقته، وقد يصدر عن المتشبه ، ويخرج عن المتصنع ، فيعرف من حاله ما ظن انه يخفيه ، ويظهر من أمره خلاف ما يبديه.)[٤٠] .

ثم يبحث في اللفظ بوصفه أحد عناصر التعبير ويؤكد على أثره في الوجدان والعاطفة وصدق دلالته على المعنى فيسهم بذلك في ترابط التأليف بين الأفكار لإنتاج النظم الملائم لما يريد المبدع إيصاله إلى المتلقي ، وجعل المتلقي يستلم هذه الأفكار المعبرة عن الأحاسيس والمشاعر فتبعث فيه الأريحية والبهجة والمتعة التي هي غاية البيان وهدفه . وهذا تماماً ما يطلق عليه في النقد الأدبي الحديث "الأثر النفسي للأدب" . والذي يفضي إلى المنهج الاعتقادي بل هو أحد أهم أركانه .

ومما تقدم نستطيع القول أن المنهج النقدي عند الباقلاني قد تشكل من جميع هذه السمات النقدية التي بحثها ، ولم يكتف بذلك بل تجاوز إلى ذكر قضايا نقدية هامة في معرض تحليله لقصيدة البحتري :

أهلاً بذلكم الخيال المقبلِ فعل الذي نهواه أم لم يفعل

برق سرى في بطن وجرة فاهتدت بسناه أعناق الركاب الضللِ

وأهم ما جاء فيها:

١ . اختلال الأفق الشعري عند البحتري في تشبيهه الخيال بالبرق ، وهو لا يشبه بالبرق ، لأن البرق سريع خاطف بينما الخيال يسري مسرى النسيم ، ويرى الباقلاني في تمثيل البحتري هذا غلوا في الصنعة ، وأن الصورة هنا مختلة وسبب اختلالها عدم الدقة في مراعاة النسبة بين المشبه والمشبه به . وهذا أدى بدوره إلى فقدان الإحساس بالجمال .

وهنا نلمح أن الباقلاني قد اهتدى إلى ما يعبر عنه في النقد الحديث بـ "الرؤية الشعرية" [٤١] .

٢ . الحشو ، وهو زيادة اللفظ على المعنى المطلوب ، وهو عيب من عيوب النظم .

٣. الاختلال في المعنى ، وهو كذلك عيب من عيوب النظم .

٤. الرونق اللفظي ، وهذا التعبير شائع في عصر الباقلاني ، ويقصد به سهولة اللفظ وسلاسته المعبرة عن جمال المعنى وحسن وقعه في النفوس .

٥. التضمين ، وهو عيب كذلك في النظم لدى النقاد العرب .

٦. الاستهلال وصلته بالفصل والوصل ، والتعقيد ، وعدم السلاسة في رصف الألفاظ وسبكها ، ويعده عيباً من عيوب الصياغة والنظم .

وأما فيما يخص القرآن الكريم ، فان الباقلاني يمارس عمله النقدي بإبراز وتوضيح مزايا القرآن التعبيرية ، وهذا ما يعده منتقدوه عملاً خاصاً بمنهجه النقدي الاعتقادي .

ونحن إذ نتفق معهم بخصوص إتباع الباقلاني المنهج الاعتقادي في النقد ، فإننا نختلف معهم حول اتهامهم الباقلاني بأنه مارس نقده وفق المنهج الاعتقادي على القرآن ، وحجتنا في ذلك أنه ليس بوسع أي ناقد منصف يمارس نقده وفق أي منهج نقدي أن يقول في القرآن غير الذي قاله الباقلاني .

فالقرآن حائز على أعلى درجات حسن وجمال التعبير الذي لا يتأتى لبشر . فما عسى ان يقول فيه القائلون ؟

ولذلك فان فطنة الباقلاني بوصفه ناقداً متمكناً كانت تتمثل في تعداد القضايا النقدية التي تعارف عليها النقاد في ذلك العصر ، وهي : [٤٢] .

١. تماسك السورة القرآنية في النظم ، الذي يتمثل في انسجام اللفظ مع المعنى ضمن وحدة الموضوع الذي يعالجه القرآن الكريم .

٢. سهولة الانتقال من معنى إلى آخر ، ومن قضية إلى أخرى ، وروعة الخروج ، مع دقة الفصل والوصل . وهذا ما اصطلح المتأخرون على تسميته بـ "حسن التخلص" .

٣. تساوي سور القرآن على اختلاف موضوعاتها قي صحة النظم بأعلى مراتبه ، و الروعة الفنية في التعبير ، مع الجرس الموسيقي للألفاظ .

٤. الدقة الفائقة في تعبير اللفظ عن المعنى والتآلف بينها وبين فنون القول الأخرى ، مثل الاستعارة والتشبيه والإيجاز .

٥. دقة اختيار المفردة القرآنية المعبرة في موضعها الذي لا يصلح له غيرها .

٦. احتفاظ القرآن بالمستوى الفني العالي في التعبير في تناوله للموضوعات العقلية الجافة التي لا تخضع عادة في الأدب لروعة البيان ، مثل التشريع والأحكام والحج وأصول العقيدة ، مما جعل القرآن ينفرد بهذه الخاصية .

٧. تمكن الفاصلة القرآنية من مكانها في التعبير القرآني ، إذ تتبوأ الموقع المناسب الذي من خلاله تضيف حسناً وروعة إلى نظم الآية .

الفصل الثاني

الدراسة التطبيقية للمنهج

بعد أن حاولنا توضيح منهج الباقلاني الاعتقادي ودراسته ، نخلص إلى تبيين كيفية تطبيقه منهجه من خلال تعرضه لنقد النصوص . وسوف نتناول مثالاً على ذلك نماذج قليلة من تحليله معلقة امرئ القيس ، وسورة النمل .

على أن لا ننسى أن الباقلاني استوحى منهجه النقدي من دراسته لبيان القرآن وتعمقه فيه ، وأنه تعامل مع النص القرآني بوصفه المثال الأعلى ، والمقياس المفرد للنظم الأدبي .

أولاً : قصيدة امرئ القيس .

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللِّوى بين الدَّخول فَحومل

فتوضحَ فالمقراةَ لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جنوب وشَمألِ (٤٣)

الباقلاني شديد الإعجاب بشعر امرئ القيس ، كما ذكرنا في نص سابق له . لكنه في معرض تحليله شعر امرئ القيس قد غلب عليه منهجه الاعتقادي فلم يكلف نفسه عناء الغور في أعماق النص . فقد كان هدفه من عملية التحليل برمتها هو إبراز إعجاز القرآن فقد اصدر حكمه مسبقاً قبل ان يلج في تحليل النص . بقوله : (ونظم القرآن جنس متميز، وأسلوب متخصص ، وقبيل عن النظير متخلص ، فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه ، فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشعاره ، وما نبين لك من عواره على التفصيل) (٤٤) .

وكان أحرى بهذا العالم الجليل إن لا يقف عند المستوى الأول للمعنى في شعر امرئ القيس ، بل يغور في المعاني الدقيقة للنص ويستخرج ما يشاء من قوة السبك وجمال التعبير ودقة التصوير ، التي لا تخفى عليه لو أراد ، لأنه مهما فعل فانه لا يقترب من نظم القرآن،لأن كائناً من كان ، ومهما علا شأنه الأدبي ، فانه لا يعدو أن يكون بشراً يخطئ ويصيب ، وليس مقدوره أن يحوز الكمال ، بينما ذلك قرآن كريم غير ذي عوج . لكن عاطفة الرجل كان لها الغلبة . غير أنه لم يكن متجنياً على كل حال ، وإنما كان رأيه صواب يحتمل شيئاً من الخطأ من خلال نظرته النقدية إلى ظاهر النص .

فيبدأ بنقد موقف امرئ القيس وهو يستوقف من يشاركه البكاء على حبيبته ومنازلها فيقول (فأول ذلك أنه استوقف من يبكي لذكرى الحبيب ، وذكراه لا تقتضي بكاء الخلي ، وإنما يصح طلب الإسعاد في مثل هذا على أن يبكي لبكائه ، ويرق لصديقه في شدة برحائه ، فأما أن يبكي على حبيب صديقه ، وعشيقة رفيقه ، فأمر محال ، فان كان المطلوب وقوفه وبكاؤه أيضاً عاشقاً ، صح الكلام من وجه وفسد المعنى من وجه آخر ، لأنه من السخف ألا يغار على حبيبه ، وان يدعو غيره إلى التغازل عليه ، والتواجد معه فيه . ثم في البيتين ما لا يفيد من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأماكن من

"الدخول" و "حومل" و "المقراة" و "سقط اللوى" . وقد كان يكفيه في التعريف بعض هـذا . وهذا التطويل ، إذا لم يفد ، كان ضرباً من العي) [٤٥] .

أما وصف امرئ القيس لهذه الأماكن بأنها "لم يعف رسمها" ، والذي عـدّه الأصـمعي مـن محاسن الشاعر ، عندما أبقى هذه الأطلال شاخصة لم يتطرق إليها البلى فأبقانا بذلك مشدودين إليهـا بمشاعرنا وأحاسيسنا ولو عفت لاسترحنا . فقد أخذه الباقلاني على الأصمعي ،

إذ قال : (وهذا بأن يكون من مساويه أولى ، لأنه إن كان صادق الود ، فلا يزيده عفاء الرسـوم إلا جدةَ عهدٍ وشدةَ وجدٍ ، وإنما فزع الأصمعي إلى إفادته هذه الفائدة ، خشية إن يعاب عليه ، فيقال : أي فائدة لان يعرفنا انه لم يعف رسم منازل حبيبه ، أي معنى لهذا الحشو ؟ فذكر ما يمكـن أن يـذكر ، ولكن لم يخلصه – بانتصاره له – من الخلل) [٤٦] .

ونحن إذا نظرنا إلى تحليل الباقلاني بشيء من التمعن ، فإننا سوف نلاحظ انه توقف عند هذا الفهم الأولي المباشر لأبيات القصيدة ، إذ عد البكاء والاستبكاء والوقوف والاستيقاف على ديار الحبيبة مخلا بالمروءة ، ومعيبا بالغيرة ، كما عدَّ الإكثار من ذكر هذه الأماكن لا يعـدو أن يكـون تطـويلا وحشوا . غير متعمق في نظرته إلى النص ، متأملا مغزى الوقوف على الأطلال الذي شكل ظـاهرة تعبيرية ، وتقليدا فنيا لدى شعراء العصر الجاهلي عامة ،(فقد كان في جوهره تعبيـراً عـن حيـرة الشاعر الجاهلي ، أو رغبته في العثور على معنى للحياة ، وذلك قبل إن يظهر الإسلام فيقـدم الحـل الروحي لمشكلات الإنسان العربي الوجودية ، وذلك بتحقيق معنى غائي متعال للوجود الإنساني)[٤٧] .

إن وقوف الشاعر الجاهلي على الأطلال تعبير عميق عن القلق إزاء معميات الحياة ، التي لا يبرح يصطدم بها وهو يقف وجها لوجه أمام الموت ، الذي يوشك أن يبطش به في أية لحظة ، وهـو يرى عناصر الفناء ماثلة أمامه في كل بقعة يضع قدمه عليها . فهو يعيش حيرة أبديـة بـين الحـب والفناء . وبذلك يجد الأطلال مجسدة هذه الحقيقية ، ماثلة أمام ناظريه ليل نهار، فالحب لديـه رمـز للحياة ، بكل الأنس والطرب والغناء والسعادة ، ويقابله الموت الذي يشكل رمزاً مرعباً للنهاية والفناء .

فهو دائماً في قلق ألا يهدم الموت ما يصنع الحب ، وبين هذا وذاك يقف الشاعر وحده مدركاً لازمة وجوده . (يشعر وهو يشارك الأشياء وجودها ، انه يعيش وقتياً ، يتعذب عذاب من لا يقدر إلا أن يخضع في النهاية ، انه خارج العالم وخارج نفسه معاً ، كئيب يعتزل ، ينتظر ، يتململ ، يغامر ، ويتمنى أن يقهر الزمن والموت والتغير) [٤٨] .

على أن هذه المعاناة التي يعيشها الشاعر الجاهلي هي التي أضفت الوحدة الموضوعية علـى القصيدة العربية القديمة ، إذ إن اختلاف لوحات القصيدة من البكاء على الأطلال ، وذكريـات اللـذة والحبيبة ، ووصف الناقة ، والفرس ، والمطر ، والثور ومعاركه الدامية ، كل هذه الـصور تـرتبط

برباط عام هو ذلك الشعور بالقلق والحيرة وأزمة الحياة التي يعيشها الشاعر ، وما شأن هذه الأجزاء في القصيدة إلا شأن خرزات العقد تنتظم في سلكها . وعلى ذلك التفسير الرمزي درج عدد من النقاد المعاصرين ، مثل أدونيس ، (الذي ذكرنا له نصاً قبل عدة سطور) والدكتور مصطفى ناصف ، الذي يرى أن قصيدة الشاعر وكلمته هي السلاح الذي يدافع به عن نفسه بمواجهة هذا الفناء ، إذا إن (الطبيعة تأكل حياة الإنسان : الريح والمطر والعين والآرام والكلأ الذي ينبت . . . وهكذا نجد الشاعر يقول : إن الفن ليس إلاّ ضرباً من لعنة الكلمة على هذا الموت . كل ما يملكه هو قوة الكلمة أو الشعر . انه يريد من خلال القوى اللغوية شبه السحرية أن يزيل التوتر الناشئ عن الشعور بالموت) [٤٩] .

أما القدماء فقد قالوا إن امرأ القيس بكى واستبكى ، ووقف واستوقف ، وقيد الأوابد ، وعدوا ذلك من دواعي عظمته الشعرية ، وإمكاناته التعبيرية ، ولكنهم لم يذهبوا إلى أبعد من ذلك ، تماماً مثلماً فعل الباقلاني رحمه الله .

أما إكثار امرئ القيس من ذكر الأمكنة فلا يعدُّ حشواً أو إطالة ، وإنما هو تضخيم للفاجعة ، وتهويل للمأساة ، فكما كانت هذه الأماكن فيما سبق داعية إلى صناعة الحياة ، أصبحت اليوم رسوماً دالة على صناعة الموت .

ثانياً : سورة النمل

حلل الباقلاني سورة النمل وسورة غافر كاملتين ، مثلما حلل من قبل معلقة امرئ القيس وقصيدة البحتري ، وقد حلل سورة النمل كاملة باعتبارها وحدة فنية وموضوعية ، إذ تناولها بالتحليل من ناحية النظم ، فتعرض لألفاظها ، ومعانيها وتكامل الألفاظ مع المعاني في النظم ، وصلة الفاصلة بالنظم ، وقد شرح مواطن الجمال في السورة وحاول الكشف عما قد يفوت القارئ العادي .

(وبذلك يقوم بدور الوسيط بين النص وقارئه ، متمشياً مع السورة من مطلعها متقلباً مع معانيها مختلفاً بين فنون التعبير فيها ، ثم يأبى أن يصدر أحكاماً أو يلقي بمقاييس جافة ، وهياكل لا حياة فيها ، ولا رواء ، لا تغني في النقد الصحيح ، كما فعل أصحاب البديع والبلاغة ، فينحي مقاييسها جانباً ، ويتمشى مع منهجه السليم القريب إلى روح النقد) [٥٠] .

ثم يلج تحليل السورة من بدايتها قائلاً : (بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده فقال : ﴿ **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى القرآن مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾ [٥١] . ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وانه رأى ناراً فقال لأهله : ﴿ **إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾ [٥٢] .وقال في سورة طه في هذه القصة : ﴿**لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى** ﴾ [٥٣] . ثم قال ﴿ **فلما جاءها نوديَ أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله ربِّ العالمين** ﴾ [٥٤] . فانظر إلى ما أجرى له الكلام الأول ، وكيف اتصل بتلك المقدمة ، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الربوبية وما دلّ به عليها من قلب العصا حيّة، وجعلها دليلاً يدله عليه ،

ومعجزة تهديه إليه ، وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن، وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة ، ثم ما شفع به هذه الآية ، وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء. ثم أنظر في آية آية ، وكلمة كلمة ، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم وبديع الوصف؟ ، فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها ، تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها؟ ثم من قصة إلى قصة ، ومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل ، وحتى يصور لك الفصل وصلاً ، ببديع التأليف ، وبليغ التنزيل) [٥٥] .

وهذا مثال على طريقة الباقلاني في تحليل النص القرآني ، وهنا نلاحظ اختلافاً كبيراً في نمط التحليل بين الشعر والقرآن ، فهنالك يصدر أحكاماً نقدية على كل ما يتعرض له ، في حين لا يصدر أي حكم خلال تصديه لتحليل القرآن الكريم ، وهذا ما نوهنا عليه ، فهو هنا إزاء القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من رب العالمين .

الخاتمة

لقد تصدى الباقلاني بوصفه ناقداً ، لأغلب ما يمكن أن يتصدى له الناقد المعاصر عندما يقف أمام النصوص الأدبية وجهاً لوجه .

فقد تصدى لنقد النصوص التي تناولها بنقد موضوعي على أساس من الفهم السليم ، والإدراك الواعي لما توحيه هذه النصوص من المعاني ، كاشفا عنها ، وموضحاً لها ، يعينه في ذلك علم وافر بأساليب القول وفنونه ، ومعرفة عميقة بطرق العرب وتقاليدها في التعبير الأدبي وبناء القصيدة العربية القديمة ، وتمرسه باللغة العربية ومقاييسها .

لقد كان الباقلاني متمكناً حقاً في عرض آرائه النقدية في المذاهب النقدية المختلفة لسابقيه ومعاصريه على حدٍّ سواء ، من خلال بحثه في القضايا النقدية الآتية :

١ . البديع والبلاغة وثورته عليهما .

٢ . أثر اللفظ في التعبير وصلته بالمعنى ، وضرورة أن يكون المعنى موجهاً للفظ .

٣ . بحثه في نظرية الأدب .

٤ . الأثر النفسي للأدب ، الذي أكد أن المثال الأعلى له يتمثل في القرآن الكريم ، متحدثاً عن الشخصية المبدعة ، وأثرها في إنشاء الأدب من خلال "الانفعال" ، الذي يحدث التأثير النفسي للأديب ، ثم تحدث عن الأثر النفسي الذي يحدثه النص في المتلقي .

ثم يخلص الباقلاني بعد كل ذلك إلى ما يمكن تسميته "النظرية النقدية" التي وضع فيها خارطة الطريق لمهمة الناقد الأدبي إذ يقول : (ولكل شيء طريق يتوصل إليه به ، وباب يؤخذ نحوه فيه ووجه يؤتى منه . ومعرفة الكلام أشد من المعرفة بجميع ما وصفت لك، وأغمض وأدق وألطف .

وتصوير ما في النفس وتشكيل ما في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده وان كان قد يقع بالإشارة ويحصل بالدلالة والإمارة ، كما يحصل بالنطق الصريح ، والقول الفصيح. فللإشارة أيضاً مراتب ، وللسان منازل. ورب وصف يصور لك الموصوف كما هو على جهته، ولا خلف فيه . ورب وصف يربو عليه ويتعداه ورب وصف يقصر عنه . ثم إذا صدق الوصف انقسم إلى صحة وإتقان ، وحسن وإحسان ، وإلى إجمال وشرح ، وإلى استيفاء وتقريب ، وإلى غير ذلك من الوجوه . وكل مذهب وطريق له باب وسبيل) [٥٦]. وبعد : فهذا هو الباقلاني ما له وما عليه .

وتبقى كلمة أخيرة ، هي أنني لم أوف هذا العالم الكبير ، والناقد البصير حقه من خلال هذا البحث المتواضع ، ولكن حسبي أنني حاولت أن انتصر له بقدر ما تسمح به الأمانة العلمية ، إيماناً مني واعتقاداً بسلامة نيته ، وصفاء سريرته وهو يصد عن كتاب عربيتنا الخالد سهام الحاقدين ، وأوهام الحاسدين .

أسال الله سبحانه وتعالى أن يجعل جهوده في ميزان حسناته . وأن يهدينا سواء السبيل، والله من وراء القصد .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. اثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري ، د. محمد زغلول سلام ، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٥٢
٢. إعجاز القرآن : الباقلاني ، تح : السيد احمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
٣. إعجاز القران والبلاغة النبوية : الرافعي ، دار الكتاب العربي ، ط٩ ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٣م .
٤. بيان اعجاز القران : الخطابي ، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القران ، تح : محمد احمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ط٢ ، مصر ، ١٩٦٨ .
٥. تاريخ النقد العربي عند العرب : د. محمود زغلول سلام ، دار المعارف ، مصر .
٦. التمهيد والإرشاد : الباقلاني : تح : ريتشراد يوسف مكارثي ، بيروت ، ١٩٥٧ م .
٧. خطوات التفسير البياني: محمد رجب البيومي.
٨. دراسة الأدب العربي ، د. مصطفى ناصف ، الدار القومية ، القاهرة .
٩. دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي : د. عفت الشرقاوي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩م .
١٠. ديوان امرئ القيس : تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، ط٤ ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
١١. ديوان البحتري : تح : حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، ط٣ ، مج ٣ ، مصر ، ١٩٧٧م .
١٢. شعر الشافعي : تح: د. مجاهد مصطفى بهجت، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ،١٩٨٦.
١٣. الظاهرة القرآنية: مالك بن نبي ، دار الفكر ،ط٤، دمشق ،١٩٨٧.
١٤. الفاصلة في القرآن : محمد الحسناوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ودار عمار ، عمان ، ط٢ ، ١٩٨٦م .

١٥. في الأدب والنقد : د. محمد مندور ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٩م .
١٦. لسان العرب : جمال الدين بن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ م .
١٧. المجمل في فلسفة الفن : بندتو كروتشه ، ترجمة : سامي الدروبي ، القاهرة ، ١٩٤٧م .
١٨. محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: د. ابتسام الصفار ود. ناصر حلاوي ، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٩٩م.
١٩. مقالات في الأسلوبية : د. منذر عياشي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ١٩٩٠م .
٢٠. مقدمة للشعر العربي : د. علي احمد سعيد (أدونيس) ، دار العودة ، بيروت .
٢١. مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية : د. عبد السلام عبد الحفيظ ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٧٨م .
٢٢. منهج البحث في المثل السائر: د. علي جواد الطاهر، دار الشؤون الثقافية العامة، ط٢، بغداد، ١٩٨٩م.
٢٣. النظرية النقدية عند العرب : هند حسين طه ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ١٩٨١ م .
٢٤. نقد الشعر : قدامه بن جعفر ، تح : د. محمد عبد المنعم خفاجي ، ط مصر ، ١٣٥٢هـ .
٢٥. الموازنة : للآمدي ، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٤٤.

البحوث

١ . الاتجاهات الأسلوبية المعاصرة في دراسة النص القرآني : د. عكاب الحياني ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الانبار ، ٢٠٠٢ م .

الهوامش

(١) لسان العرب: مادة نهج.
(٢) منهج البحث في المثل السائر:٣.
(3) النظرية النقدية عند العرب : ٢٦٨ .
(4) النقد الأدبي أصوله ومناهجه : ١٢٢ .
(5) النظرية النقدية عند العرب : ٣٣٠ .
(6) نقد الشعر : ١٧ .
(7) في الأدب والنقد: ٢٢.
(8) المصدر نفسه : ١٥ .
(9) شعر الشافعي: ٣٣٩ .
(10) ينظر : محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: ٢٤٤.
(11) بيان إعجاز القرآن : ٢٦ .
(12) المجمل في فلسفة الفن : ٥٥ .
(13) بيان إعجاز القرآن : ٨ب.
(14) التمهيد : ١٥١ .
(15) إعجاز القرآن : ٣٠ .
(16) ديوان البحتري : ٦٧٤ .
(17) ينظر : أثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٨٥ .
(18) ينظر : مقالات في الأسلوبية: ٢٠٢ .
(19) أثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٨٦ .

(20) اثر القران في تطور النقد العربي :٢٨٦.
(21) خطوات التفسير البياني :١٤٦.
(22) إعجاز القرآن : ١٢٤
(23)خطوات التفسير البياني: ١٤٧.
(24) ينظر : مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية : ١٧٨ .
(25) ينظر : الاتجاهات الأسلوبية المعاصرة في دراسة النص القرآني : ٨٠ -٨٢ .
(26) ينظر : الموازنة : ١١/ ١٢ .
(27) الظاهرة القرآنية : (مقدمة محمد محمود شاكر) :٤٤.
(28) المصدر نفسه :٤٤
(29) إعجاز القرآن : ١٠٦ .
(30) المصدر نفسه : ١٤٠ .
(31) ينظر : تاريخ النقد العربي : ٣٥٣ .
(32) نكت الانتصار : ١٤٢ .
(33) المصدر نفسه : ١٤٢ .
(34) إعجاز القرآن : ٤٨ .
(35)المصدر نفسه : ٤٩ .
(36) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢١٦ .
(37) سورة الأعراف : ٧/ جزء من الآية ٥٢ .
(38) لسان العرب : مادة (فصل) .
(39) الفاصلة في القرآن : ١٩٢ .
(40) إعجاز القرآن : ١٧٣ .
(41) ينظر : أثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٨٩ .
(42) اثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٩٤-٢٩٥ .
(43) ديوان امرئ القيس : ٨ .
(44) إعجاز القرآن : ١٠٦ .
(45) إعجاز القرآن : ١٠٧ .
(46)المصدر نفسه: ١٦١ .
(47) دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي : ٢٣٢ .
(48) مقدمة للشعر العربي: ١٤ .
(49) دراسة الأدب العربي : ٢٣٧ .
(50) أثر القرآن في تطور النقد العربي : ٢٩٢ .
(51) سورة النمل : ٢٧/٦ .
(52) سورة النمل : ٧/ ٢٧ .
(53) سورة طه : ١٠/ جزء من الآية : ٢٠ .
(54) سورة النمل : ٢٧/٨ .
(55) إعجاز القرآن : ١٢٣-١٢٤ .
(56) إعجاز القرآن : ١٥٥ .